1

هل يمكننا أن نتحدث؟
الأمهات والبنات في حوار

تقول إحدى النساء وابنتاها في الثلاثينيات من عمرهن: «إن بناتي يستطعن قلب يومي إلى يوم أسود في ثانية..». وأخرى تقول: «كنت أتكلم مع أمي عبر الهاتف وكل شيء يسير بهدوء، ثم فجأة قالت أمي شيئاً أغضبني كثيراً، فقمت بإقفال السماعة بدون تفكير. ثم بعدها لم أستطع تصديق أني فعلت هذا، فأنا لا أتصرف هكذا مع أحد أبداً».

ولكني أيضاً أسمع تعليقات مثل: «لا أحد يدعمني ويجعلني أشعر بشعور جيد كأمي. فهي دائماً إلى جانبي». وتعليقاً من أم لبنت بالغة تقول: «أنا أشعر أني محظوظة وقريبة جداً من ابنتي، خصوصاً أنني لم أحظ بعلاقة قريبة مع أمي، إنها علاقة تجعلني أشعر بالمساندة والشفاء. إن الأمهات والبنات يجدن في بعضهن مصدراً للراحة العظيمة ولكن أيضاً مصدراً للألم العظيم. إننا نتكلم مع بعضنا بأفضل وأسوأ الطرق مجتمعة بالقياس إلى كلامنا مع أي أحد آخر. وهذا التطرف من الممكن أن يوجد في الطرفين الأم والبنت معاً. كانت هناك أختان في مصعد المستشفى الذي ترقد فيه الأم على فراش الموت فسألت إحدى الأختين الأخرى: «كيف ستشعرين عندما تموت أمنا؟» أجابت الأخت: «جزء مني يقول: «كيف سأعيش بعدها؟» والجزء الآخر يردد: «أخيراً ماتت الساحرة».

الجزء الذي يقول «كيف سأعيش بعدها ؟» يعكس الاتصال العاطفي: الرغبة في الكلام مع أمك شيء غريزي أو كما الرغبة الجسدية، و إن كانت تعيش في البيت المجاور أو في مدينة ثانية، أو في بلد آخر أو حتى لو لم تعد تعيش على الأرض. ولكن الجزء الذي يرى أمك ـ كساحرة وشريرة وامرأة حاقدة بقوى سحرية ـ يعكس غضبك الذي يشتعل من نبذها لك أو من كلمة استهجان واستنكار أو مجرد شعورك بأنها مازالت تعاملك كطفلة، كل هذا يسبب ألماً عميقاً. إن الثقافة الشعبية الأمريكية ـ كما الأفراد في الحياة العادية ـ تميل إما إلى إظهار الأم بمظهر رومانسي أو بمظهر الشيطان. إننا نتقلب بين اثنتين : «إن كل ما أنجزته في حياتي أدين به لأمي. «أو» إن كل مشكلة في حياتي هي بسبب أمي». وهذه الإدانة تأتي محملة بالعواطف القوية. لقد اندهشت من عدد النساء اللاتي كن يكتبن لي عن أمهاتهن وكل واحدة منهن تكتب وتقول: «إنني أبكي وأنا أكتب لك هذا».

النساء كأمهات يتصارعن مع التناقض والتطابق. إن العبادة والهيام الذي يشعرن به تجاه بناتهن ـ ممزوجا بشعور المسؤولية تجاه سلامة البنات ـ من الممكن له أن يكون شعوراً غامراً وساحقاً. هذا الشعور يقارن فقط بمقدار الألم الذي يشعرن به عندما تترجم محاولتهن للمساعدة أو للبقاء على اتصال على أنها تدخل مفرط وانتقاد، وتقابل بالصد والشجب.

وحقيقة فَإن هذا الدفع والجذب في العلاقة يستمر حتى بعد بلوغ البنات سن الرشد، هو بحد ذاته مفاجأة وليس بالمفاجأة الجيدة. تقول سيدة في الستين من عمرها: «كنت أتوقع أنه ما إن تصبح ابنتي بالغة حتى تنتهي

المشكلات بيننا.. ونصبح صديقتين نستمتع ببعضنا. ولكني أجد أنه كلما كبرت بالسن بدأت الأمور تؤلمني أكثر، وزد على ذلك التعقيدات بيني وبين ابنتي.. إن هذا مخيب للأمل».

إن شعور الألم الناتج عن خلاف حدث بسبب شرارة بسيطة هو محير ومخيب للأمل، ويظهر على أنه تافه وغير مهم. هنا مثال من إحدى تلميذاتي تدعى كاثرين هاريسون: «هل ستقومين بتقطيع الطماطم؟» سمعت كاثرين صوت أمها وهي تقوم بتحضير السلطة. تصلبت كاثرين وتسارعت نبضات قلبها وقالت: «حسناً، كنت أعمل على هذا». ردت أمها: «آه.. حسناً». ولكن نبرة صوت الأم ونظرتها لكاثرين جعلتها تسأل أمها:«هل هذا خطأ؟»

«كلا.. كلا ولكني لو كنت مكانك لقطعتها شرائح».

أجابت كاثرين بأدب:«حسناً». ولكن بينما كانت تقطع الطماطم إلى شرائح فكرت، هل لي أن أفعل شيئا دون تدخل أمي وتعليمي كيف علي فعله؟

أنا مستعدة للرهان على أن أم كاثرين اعتقدت أنها كانت تسأل مجرد سؤال عن تقطيع الطماطم. أي شيء أتفه من هذا؟

ولكن ابنتها اتخذت موقفاً عدوانياً لأنها سمعت المعنى المتضمن «أنت لا تعرفين ما تصنعين. أنا أعرف أحسن منك».

عندما تكون ردة فعل البنات منزعجة وغاضبة لأبسط الملاحظات التي تبدو بريئة، فإن الأمهات يشعرن بأن كلامهن مع بناتهن كما المشي على قشر البيض، عليهن الانتباه لكل كلمة.

obeikan.com

إن أسئلة الأم وتعليقاتها التي توحي للبنت بأن عليها فعل الأشياء بطرق مختلفة من الممكن أن تطلق شرارة الإجابات الثقيلة، لأنها تعيد إلى مركز التركيز لغز العلاقة بين الأم وابنتها وهو «المعنى المزدوج للتواصل والتحكم».

كثير من الأمهات والبنات يكن على أقرب ما يكون من بعضهن، ولكن القرب دائماً يحمل معه الحاجة أو في الواقع ـ الرغبة ـ في مراعاة أثر تصرفاتك على الطرف الآخر، وهذا يجعلك تشعرين كما لو أنك لا تتحكمين في حياتك الخاصة. إن أي كلمة أو حركة مقصودة خلال هذا التواصل يمكن أن تفسر على أنها إشارة بأن الطرف الآخر يحاول السيطرة عليك.

وقد تبلور هذا المعنى المزدوج في تعليق من امرأة فقالت: «إن ابنتي كانت تكلمني بالهاتف كل يوم، وقد أحببت هذا. ولكنها بعد ذلك توقفت. إنني أتفهم أنها تزوجت وانشغلت، وأنها شعرت أنه ربما عليها إرخاء حبل الوصل قليلاً. أنا أفهم هذا ولكني مازلت أشتاق لمكالماتها». لاحظي في المعنى «إرخاء حبل الوصل» يكمن المعنى المزدوج للتواصل والتحكم. إن كلمة «الوصل» تثير العاطفة في «العلاقة القريبة» وأيضاً سيطرة «العبودية»: أن تكوني مربوطة بأحد ولست حرة.

هناك أيضاً سبب آخر لجعل التعليقات والنصائح تثيرنا: «وهو أنها من الممكن أن تفهم على أنها عدم ثقة». وهذا مزعج من أي شخص، ولكنه مؤلم إذا أتى من شخص تعتد برأيه ـ كأمك ـ. وبالرغم من أن هذا يبدو محيراً للأمهات فإن أصغر ملاحظة من الممكن أن تجعلنا نفكر بأكبر الأسئلة التي

تحوم فوق كل حوارات الأم والبنت تقريباً: « هل تراني كما أنا في الحقيقة؟» و«هل تعتبر شخصيتي جيدة؟» وعندما تعلق الأمهات على البنات أو ـ البنات على الأمهات ـ ويكون التعليق جواباً إيجابياً فإنه يعيد الطمأنينة لأعماقنا، ونشعر أن كل شيء في العالم جيد. ولكن عندما تلمح كلماتهن بالسلبية والرفض: «إن ما تفعلينه غير صحيح». فإن البنات «أو أمهات المستقبل» يبدأن يشعرن بأن الأرض اللاتي يقفن عليها بدأت بالاهتزاز. إنهن يبدأن بالشك بصحة أفعالهن ومن ثَمَّ بحقيقتهن كأشخاص.

إنك لن تلبسي هذا، أليس كذلك؟

لورين كانت تقضي أسبوعاً في زيارة أمها التي تعيش في مبنى للعجزة. وفي مساء أحد الأيام كانتا على وشك النزول إلى صالة الطعام لتناول العشاء. وبينما اتجهت لورين إلى الباب توقفت أمها مترددةً وهي تتفحصها بعينيها من رأسها إلى قدميها سائلة: « أنت لن تلبسي هذا، صحيح؟».

«ولم لا؟» سألت لورين، وقد بدأ ضغط دمها بالارتفاع «ما الخطأ فيه؟».

«حسناً. إن الناس هنا يلبسون ملابس أكثر تألقاً، هذا كل شيء». هنا قامت أمها بالشرح لمدى أبعد من اللزوم ملمحة إلى أن ابنتها لم تكن ترتدي ملابس جميلة ومناسبة. إن أسئلة أمها السلبية ضغطت على لورين بالطريقة الخطأ، لأنها لم تكن أسئلة كما هو واضح.

«لماذا دائماً تستنكرين ولا توافقين على ما ألبس؟» سألت لورين.

الآن ظهرت على وجه أمها نظرة تلمح بأن لورين تتصرف بغير لباقة: «أنا لا أستنكر»، اعترضت الأم «أنا فقط فكرت لو كنت قد ارتديت ملابس أخرى».

إن الطريقة التي من الممكن أن نفهم بها الاختلاف بين ما سمعته لورين وما تقول أمها إنها عنته هو معرفة الفرق بين «الرسالة المباشرة» في الكلام وبين «المعنى المخبأ» في الرسالة. عندما قالت أم لورين: «أنا لا أستنكر». فإنها كانت تعني المعنى الحرفي «أو المباشر» للكلمات التي تفوهت بها. ولكن الاستنكار الذي سمعته لورين في المعنى والتلميح المخبأ في كلمات أمها هو «الرسالة الخفية» أو ما وراء الرسالة. كل ما نقوله له معنى على هذين المقياسين. إن «الرسالة المباشرة» هي التي تكمن في التعريف القاموسي للكلمات. وكلنا تقريباً نوافق على ذلك. ولكن الناس عادةً يختلفون حول ترجمة وتفسير الكلمات، لأن التفسير يعتمد على «المعنى المخبأ». لأن المعنى يفهم من الطريقة التي قيل بها، أو حتى إن كان قد قيل أم لا. وردود الفعل العاطفية عادة تثار وتفجر بسبب «المعنى المخبأ» في الكلام.

عندما قالت أم لورين: «أنا لا أستنكر» فإنها كانت تقوم بفعل ما أسميه «صراخ بالمعنى الحرفي». إنها تستطيع أن تختبئ تحت مفهوم الرسالة المباشرة وتأخذ مسؤولية المعنى الحرفي لكلماتها فقط.

وعندما يصرخ أحدهم بالمعنى الحرفي، فإنه من الصعب حل النزاع، لأنه سينتهي بك الأمر بالكلام عن الرسالة المباشرة بينما المعنى الخفي في الرسالة هو الذي كان قد أثار غضبك.

هذا لا يعني أن بعض القول له معنى خفي وبعضه لا. كل ما نقوله له معنى خفي يشير إلى كيفية تفسير كلماتنا: هل هذا فعلاً تعبير جديّ أم مزحة؟ هل تظهر الإزعاج أم الرضا؟ في كثير من الأوقات فإن المعاني الخفية في الكلام تصل وتفسر بدون انتباه، لأن المتكلم والمستمع يوافقان

على المعنى العام للكلام. إننا نلاحظ ونهتم فقط بالمعاني الخفية عندما لا تتفق معاني المتكلم مع ما يفهمه السامع.

عندما فسرت لورين كلام أمها على أنه دلالة على عدم الرضا كانت تتصور الحوارات القديمة بينها وبين أمها، لم تستطع عد المرات التي علقت أمها فيها خلال هذه الزيارة أو في زيارات سابقة قائلة: «هل ستلبسين هذا؟» وفي هذه المسألة تكمن الأسباب الأخرى التي تجعل أي كلام يدور بين الأم وابنتها إما أن يدخل الدفء لقلوبنا، أو يرفع من ضغطنا. إن حوارات لورين وأمها لها تاريخ طويل، تعود إلى مرحلة بداية حياة لورين. إذاً أي شيء يقال من أي منهما في أي لحظة يؤخذ بمعنى، ليس فقط من الكلمات المتفوه بها في تلك اللحظة ولكن أيضا من كل الحوارات التي دارت بينهما في الماضي. وهذا له أثر بطريقة إيجابية وسلبية معاً. إذ إنه ينتهي بنا إلى أن نتوقع تعليقات معينة من بعضنا، ونكون مستعدين لتفسير ما نسمع طبقاً لهذه النفسية والروح.

حتى الهدية التي تكون الرسالة منها إيماء واضحاً للتواصل، تستطيع أن تحمل في طياتها معنى «مخبأ» للانتقاد في سياق الكلام الذي دار في الحوارات في الماضي. مثلاً إذا دلت البنت أمها على متجر راقٍ للملابس فإنه من الممكن أن تفهم أمها الرسالة على أنها لا تستطيع انتقاء ملابسها بطريقة جيدة. أو ممكن أن تفهم البنت الرسالة على أنها انتقاد إذا قامت أمها بإهدائها أدوات لتنظيم مطبخها الفوضوي.

إن التاريخ الطويل للحوارات التي يتشارك به أفراد العائلة لا يسهم فقط في كيفية تفسير الكلمات ولكن أيضاً بكيفية اختيار المتحدثين للكلمات.

علقت امرأة على هذا الموضوع قائلة: «إن الكلمات كما اللمس. يمكن أن تخدش أو أن تلاطف. عندما أتكلم مع أولادي فإن كلماتي عادة تخدشهم، أنا لا أريد استخدام كلمات كهذه ولكن ليس بيدي حيلة. أنا أعلم أنهم حساسون، ولذا أعرف ما الذي يؤثر فيهم. وإذا كنت أشعر بالألم تجاه شيء قالوه أو فعلوه، فأنا أقول أشياء سوف تخدش أحاسيسهم. وهذا يحدث في المنطقة التي بين الميول الفطري والقصد.»

هذا التعليق يبين قوة اللغة في نقل وإيصال المعاني غير الموجودة في المعنى الحرفي للكلمات. إنه يلقي الضوء على كيفية استخدامنا للحوارات القديمة كمصدر للمعاني في الحوارات الحالية. وفي الوقت نفسه فهي تصف الاختلاف بين «الرسالة» وبين «الرسالة الخفية» أو ما وراء الرسالة. الاختلاف الذي سيكون مهما في كل الحوارات التي سوف نقوم بدراستها في هذا الكتاب.

ومن يهتم؟

كانت جونا تتكلم عرضاً مع زوجها، وبينما هي شاردة الذهن شدت على جزء من جلدة أصبعها، فسقطت منها قطرة دم صغيرة. وبدون تفكير كانت تحملها بيدها أمام عيني زوجها. قال زوجها بفتور: «ضعي عليها ضمادة جروح». إن ردة فعل زوجها جعلتها تتساءل: لم جعلته يرى جرحها بكل تفاهة؟ ثم أدركت أنها قد تعودت على عرض جراحها مهما صغرت على أمها. ولو أن أمها رأت هذا الجرح البسيط لكانت مدت لها يدها، وأخذت أصبع جوانا وتفقدته بلطف. جوانا كانت تبحث عن لمحة العطف والشفقة، رسالة تذكير سريعة الزوال بأن أحداً آخر يشاركها هذا الكون.

من غير أمها ممكن أن يحترم جرحاً بسيطاً ويجعله يستحق كل هذا الاهتمام؟ لا أحد ـ لأن أم جوانا لا تستجيب للجرح فقط ولكنها تستجيب لإيماءات جوانا ومحاولتها إظهار هذه الإيماءات لأمها. إنه ليس من الواقع أو الحقيقة أن يكون قلق الأم فقط بسبب جرح الإصبع البسيط، ولكنها كانت اللغة الدقيقة والبارعة التي يتقاسمنها. إن نقطة الدم البسيطة هذه هي تذكير من جوانا لأمها «بأني هنا». وتأكيد من أمها على أنها «حريصة على رعايتها».

نمت عند كثير من النساء عادة إخبار الأمهات عن المحن الصغيرة في الحياة لأنهن يقدرن رسالة العناية والاهتمام الناتجة من ردة فعل أمهاتهن. ومع ذلك فإن بعض النساء كجوانا قد لا تلاحظ الفرق حتى تحصل على ردة فعل مختلفة من شخص آخر. هذا أيضا حدث مع كاري إحدى تلميذاتي. كانت عادة كاري أن تتحدث إلى أمها عندما تتصل ببيت والديها وقد كانت مريضة بالأنفلوانزا وقتها، لكن كانت خارج المدينة فتحدثت كاري مع والدها، وهكذا روت كاري الحوار الذي دار بينها وبين والدها:

كاري: آه يا أبي. أنا مريضة بالأنفلوانزا، إنه شعور بغيض للغاية.

الأب ببرود: حسناً، خذي بعض الدواء.

كاري: لقد أخذت، ولكني مازلت أشعر بالتعب الشديد.

الأب: حسناً اذهبي إلى الطبيب.

كاري: ولكن كل من في المدرسة مريض أيضاً، حتى إنني لم أستطع أخذ موعد مع الطبيب اليوم.

الأب: حسناً إذاً، أنا آسف. لا أستطيع مساعدتك في هذا.

في التعليق على هذا الحوار، شرحت كاري أنها تعرف جيداً كيفية أخذ الدواء، وأن عليها الذهاب للطبيب عندما تشعر بالمرض. وما كانت تبحث عنه عندما اتصلت بالبيت هو رسالة اهتمام مخفية. وكانت هذه كلماتها: «إنني متعادة على اهتياج وقلق أمي على أصغر المشكلات في حياتي». ونلاحظ الفرق بين ردة فعل أمها المميزة وطريقة والدها الواقعية التي تركتها تشعر بعدم الرضا، أو حتى بقليل من الألم.

الدعم في التفاصيل الصغيرة

لا تحتاج الأمهات والبنات إلى أن يشعرن بالمرض حتى يتكلمن ويتواصلن مع بعضهن، في حال كان التواصل من مسافة بعيدة، أو من خلال اللقاء الشخصي، أو خلال مكالمة هاتفية. ومن خلال كلام النساء معي عن أكثر ما يقدرنه في العلاقة مع أمهاتهن فإن كثيراً منهن ذكر الحوارات الدائمة التي تدور حول أصغر التفاصيل في الحياة اليومية: ومن غير أمي أستطيع أن أقول له: بأن القميص الذي طالما وددت شراءه قد نزل على لائحة التخفيضات؟ من غير أمي من الممكن أن يهتم؟ هذه من أكثر أوجه الكلام تكلفاً مع الأم: لا أحد يهتم بما لبست، أو ما أكلت؟ أو ماذا قيل لك بالتحديد؟ وما كانت ردودك؟. بالنسبة لمعظم النساء فإن الاهتمام بأتفه الأمور هو إشارة للألفة والاهتمام.

والعكس صحيح أيضاً بالنسبة لعلاقة الأم وابنتها. في خلال بحث قمنا به في الفصل، بحثت كايت ستودارت في بريدها الإلكتروني الذي قد استلمته من أمها، كانت الأم قد أخبرت ابنتها في أحد الإيميلات عن شعورها تجاه الملابس التي قد اشترتها بمساعدة كايت فقالت: (أحببت

القطع التي طلبناها، ولكني سأقوم بإعادة القمصان البنفسجية.. الكنزة الخضراء ممتازة، والزرقاء أيضاً قد أحببتها جدًا...(شكراً لمساعدتك لي في إيجادها).

بوضع هذه المعلومات في أقواس فإن أم كايت بينت أنها أخذت نظرة ابنتها في الاعتبار، واحترمت رأيها. وهذه التفاصيل الصغيرة تساعد في البقاء على علاقة قريبة مع الابنة التي كانت تعيش في الجامعة.

إذا كان تبادل التفاصيل اليومية في الحياة يخلق ويبقي على المودة، فإن عدم الاهتمام بهذه التفاصيل وفهمها بالطريقة الخاطئة قد يكون بداية لهروب المودة. في كتاب «الحب الذي خسروا: العيش في ميراث الطلاق» لستيفان ستال، عاشت ستيفان مع والدها بعد طلاق والديها، تتذكر ستيفان بداية مراهقتها وكيف أنها كانت تستمتع بوجود أمها بجانبها خلال زيارتها الأسبوعية ولكن تتابع ستيفان أن أمها كانت تسأل عن صديقة لم تكلمها منذ سنين، أو أن تخلط أسماء الأصدقاء الحاليين بالقدامى، تقول ستيفان: «اعتدت على إعطائها ابتسامة باهتة، و شعرت كم هي المسافة كبيرة بيننا». إن عدم معرفة أمها لتفاصيل اليومية في حياتها كان مؤلماً ومذكرًا لما قد خسرته ستيفان عندما تركت أمها البيت.

المحقق الكبير

أليسون كيلير، طالبة أخرى شرحت في بحث كتبته في فصلي كيف أن التفاصيل الصغيرة تكون جزءًا كبيرًا من محادثاتها وعلاقتها مع أمها. وركزت على الدور الذي تلعب من خلال أسئلة أمها.

وبالنسبة لأليسون فإنها على صلة قريبة بأمها، وتقوى هذه الصلة عند حديث أليسون عن «أتفه الحوادث وأصغر التفاصيل» في حياتها. تصف أليسون واحداً من هذه الحوارات على هذا النحو:

في محادثة هاتفية حديثة مع أمي كنت أخبرها عن يومي وما قد فعلت. أخبرتها بأني ذهبت للغداء مع أخي لاري، وحضرت دروس تقوية إضافية، وأني ذهبت للسينما مع صديقتي. وتابعت أمي بالسؤال «ماذا لبست؟» «ماذا أكلت؟» «وما نوع الصلصلة التي كانت على طبق السلطة؟» «وهل كان هناك موضوع تتحدثين فيه مع أخيك لاري أم أنه كان غداء عاديًا؟» «هل اتصلت به أنت أم هو اتصل بك؟» «وهل لبست الملابس نفسها في الدروس والسينما، أم أنك قمت بتغيير ملابسك؟» و«متى نمت على هذا الحال؟» و«هل كان عندك عمل اليوم التالي؟» وهكذا.

ومن خلال قراءة هذه الأسئلة فإنه يمكننا رؤية السبب الذي يجعل أليسون وأخيها يسمون أمهم بـ«المحقق الكبير» ولكن أليسون تقول هذا بحب وليس بانزعاج. هي لا تمانع أسئلة أمها الكثيرة؛ لأنها تحب أن تخبرها بكل القصص التي دارت في يومها (مع ذلك فهي تنزعج من وقت لآخر عندما تكرر أمها الأسئلة بينما تحاول هي الإجابة وتقاطعها أمها بثلاثة أسئلة أخرى!).

أي شيء يشير إلى المودة من الممكن أن يفهم على أنه تطفل إذا كانت المودة غير مرغوب بها. والحال نفسها في الاهتمام بتفاصيل الحياة فإننا قد نستاء منها ونرفضها بدلاً من الترحيب بها إذا لم نود التقرب من الشخص السائل.

إن الأم التي تود الاطلاع على كل صغيرة وكبيرة من حياة ابنتها قد تبدو كأفضل صديقة، أو قد تبدو كمستجوب، وكثير من البنات قد لا يشاركن أليسون في تقديرها لدور أمها.

إن البنت قد تتمنى ألا تسأل أمها أسئلة كثيرة في حال كان الموضوع حرجاً ومزعجاً ولا تود البنت الإسهاب فيه. وهكذا كانت الحال مع طالبة أخرى اسمها كولين، تقول كولين:

قد مررت مؤخراً بمرحلة صعبة بعد انفصالي عن خطيبي الذي دامت علاقتي به أربع سنوات. وبالرغم من أني عادة أفضي إلى صديقاتي عند مروري بمسألة كهذه، لكني اعتقدت أن أمي ستقدم لي وجهة نظر مختلفة عن صديقاتي، وقد فعلت. كانت أمي أكثر من مستعدة للاستماع إلي ولمواساتي ولتقديم الرأي والنصح. ولكنها كانت سريعة في تذكيري في سبب ترددي بالكلام معها في مسائل كهذه في الماضي. ومنذ ذاك الحوار الذي دار بيننا فهي تنجح باستمرار في توجيه كل حواراتنا تجاه الانفصال، من خلال أسئلة كهذه: «كيف تتعاملين مع الأمور؟» و«ماذا عنه هو هل هو بخير؟» «ما الذي ستقومين بفعله هذا الصيف؟» وهكذا... وأخيراً كان علي أن أخبرها بأني لا أود الحديث في الموضوع؛ لأنها كانت تزيد من صعوبة الموقف علي. وقد أزعجها كلامي.

إن الاطلاع على مشكلات بعض الناس يضعك في مأزق: هل عليك تجنب ذكر الموضوع وتجازف في الظهور كشخص قاسي القلب، أم تذكر الموضوع لتبدي اهتمامك وقلقك وتخاطر في إحداث أضرار إضافية وتبدو متطفلاً. أم كولين اختارت الأخير. وفضلت ابنتها لو أنها اختارت الأول.

وبوضوح فأم كولين سألت هذه الأسئلة كتعبير عن الاهتمام وطريقة حماية ورعاية للقرب الذي بدأت به كولين عندما أحسنت الظن ووثقت بها. لكن في حين أن كولين قدرت تدخل أمها عند سؤالها، لكنها لم تكن ممتنة عندما كانت أمها هي من يفتح الموضوع .

ليس هناك شك بأن أمها كانت منزعجة لأن تصعيب الأمور على ابنتها كان آخر ما تود فعله، وطلب ابنتها لها بالتوقف عن الأسئلة قد يبتر القرب والصلة بينهما.

إذا كانت الأم تلتمس المعلومات كوسيلة للتقرب من ابنتها، إذاً القدرة على إعطاء أو إمساك هذه المعلومات يعطي البنت القوة في العلاقة. قوة من الممكن أن تستخدمها البنت في زيادة القرب بينهما أو في الحد منه. وهي طريقة من بين طرق عديدة تستطيع البنت من خلالها التغيير والتبديل على هذه القوة عند بلوغها لسن الرشد.

التدخل أم الغزو؟!

ليليان لديها بنات في الثلاثين من العمر، وقد دارت بينهن حوارات مختلفة. كانت الصغرى منهن آندريا طفلة منعزلة دائماً. ليليان لم تكن تستطيع انتزاع معلومات من صغيرتها، فعندما يكون الأطفال صغاراً تحتاج الأم أن تعرف ما يدور في حياتهم حتى تستطيع حمايتهم. ولكن التحقيق والسؤال أدى إلى صمت آندريا المحتوم. كانت تغلق وتطبق بإحكام تماماً كما يفعل ذلك الحيوان الصدفي عندما يستشعر الخطر. وقد أدركت ليليان مبكراً أنها سوف تجمع معلومات أكثر من آندريا إذا تظاهرت بأنها غير مهتمة وتترك ابنتها تتطوع بالمعلومات في الوقت الذي يناسبها. آندريا

كانت أشبه بالقصر المحمي ذي الجدران العالية وكان على أمها الانتظار في الخارج حتى يتم إنزال الجسر المتحرك والغامض، ويفتح محجوبًا من الداخل.

البنت الكبرى نادين مختلفة تمامًا فمنذ أن كانت صغيرة كانت تتكلم بحرية مع أمها عن أي شيء يدور في حياتها. تأتمنها على مخاوفها، وتطلب نصحها، وبدت كما لو أن لديها بعض الأسرار التي لم ترد أن تفشيها. وبالرغم من هذا فإن الشيء المحير الآن أن ليليان «الأم» على خلاف مع نادين وليس آندريا. أحيانًا نجد الحوار يدور بتجانس خلال مكالمة هاتفية بينهما. تخبر نادين أمها عن أمر شخصي والأم تسأل بدورها الأسئلة، وتقدم الملاحظات كما قد تفعل أي صديقة أخرى. ولكن الأم تسأل أسئلة مكررة ومشابهة لبعضها. نادين تشتعل غضبًا لدرجة أنها أقفلت سماعة الهاتف مرة تاركة أمها على الطرف الآخر محدقة بالسماعة صامتة، ومتألمة كما لو أنها قد صفعت للتو. عرفت الأم أنها تعدت بعض الحدود، ولكنها كانت أيضاً في حيرة من أمرها، إذ كيف لها أن تعرف أين تنتهي الحدود. بالنسبة لليليان فإن نادين تشبه المضيفة التي لا يمكن التنبؤ بها، فهي تدعوك لبيتها ثم لا تلبث أن تطردك وتضرب الباب في وجهك. وفي مثل هذه الأوقات تتمنى أنه لو لم يتم دعوتها من الأساس.

إنه لشيء مثير للسخرية ومحير للأم أن تظهر هذه المشكلات مع نادين، البنت التي طالما تكلمت معها بكل حرية، وليس مع آندريا التي كانت دائماً تترك مسافة ذراع بينها وبين أمها. ولكن هذا التطور ليس مفاجئاً لأن الحديث عن مواضيع شخصية يوفر الفرص للملاحظات والانتقادات التي من الممكن أن تؤلم أحاسيسنا ومن ثَمَّ تغضبنا. وهذا

يفسر لماذا علاقة الأم بالبنت من الممكن أن تكون مصدر ضيق ومشكلات، وأن تكون أيضاً مصدراً للراحة. وعلى خلاف بعض الأوقات فنتائج هذه الأنواع من الحوارات تحدث مع كثير من النساء القريبات من بعضهن. إن اندلاع النار والغضب يثار من خلال الالتفاف بالحوار والكلام الذي بدوره يغيظ أحد الطرفين، لذا فإنه من الأرجح عند حديث الأم وابنتها في أمور خاصة وشخصية ـ كالتي تدور بين معظم النساء ـ فإن هذه الأحاديث تعتبر كنزاً ورمزاً للقرب والمودة. واحدة من المجازفات لهذه الحوارات هي تخطي الحدود الخفية: فإن إعطاء حد معين من المعلومات الشخصية لا يعني بالضرورة أن المرأة تود كشف كل جزء من حياتها. وبمعرفة هذا فإن ليليان افترضت أنه عندما تغضب ابنتها نادين بعد طرح سؤال عليها، فإنه من المؤكد أن السؤال الذي سألت قد تخطى الحدود إلى منطقة لا تود البنت الدخول إليها. في كثير من الأحوال ما يغضب البنت ليس نوع المعلومات التي تحاول الأم معرفتها، لكن الحكم والانتقاد الذي يتضمنه السؤال. وهذا يحدث بتفاهة واضحة وجلية في تبادل التفاصيل بنفس درجة الحديث المحمل بالعواطف الزائدة.

الارتقاء أو الانحدار بنفسك؟

كانت مارين تتكلم عبر الهاتف مع ابنتها كلير التي تعمل مدرسة للبيانو. وكان جدول كلير ممتلئاً بالطلاب والدروس الخصوصية خصوصًا بعد أن انتخبت مؤخرًا رئيسة لجمعية المعلمين للموسيقى التي كانت عضواً فيها. وخلال حوارهم الهادئ واللطيف قالت كلير: «إنني متعبة جدًا لم أنم طيلة الليلة السابقة، كنت أكتب تقييمي للطلاب الذين قدموا طلباتهم للحصول على المنحة الدراسية في جمعيتنا، والليلة سأكون مستيقظة أيضًا

حتى أطبع المسودات من اجتماعنا الأخير». ردت مارين: «إنك تأخذين على عاتقك الأشياء الكثيرة يا كليرا لماذا لا يقوم أحد من الأعضاء بعمل بعض هذه الأشياء؟ لا يجب عليك طباعة المسودات على أي حال؛ أنت لست بسكرتيرة، أنت الرئيسة! إنني أكره أن أرى الناس يحتالون عليك ويستخدمونك لفوائدهم». بعد هذا التعليق يأتي الانفجار.

«أمي..» انفجرت كلير. «أنت تعلمين حبي الشديد للعمل في جمعية المعلمين للموسيقى! وكنت فرحة جداً بانتخابهم لي، وقد اخترت بنفسي البقاء كرئيسة للجنة المنح الدراسية. أنا أحب أن أكون الحكم فهذا يساعدني في تهيئة تلاميذي للمنافسة. وقد تطوعت هذه المرة لأخذ الوقت الإضافي للعمل على هذا، لأن السكرتيرة لم تستطع القيام بالاجتماع، لماذا أنت دائماً تهونين وتقللين من شأني؟ لم لا تساندينني أبداً؟» دافعت مارين عن نفسها قائلة: «أنا لا أقلل من شأنك. وأنا أساندك!» تشعر الأم أن ابنتها قد هاجمتها بطريقة غير عادلة. من أين لها هذه الفكرة بأن أمها كانت تهون و تقلل من شأنها، أليس من المساندة والمعاونة أن تشجع ابنتها للوقوف والصمود لنفسها؟ وإذا كانت كلير لا توافق على اقتراحات أمها لماذا تغضب؟ لماذا أحدث هذا التعليق الصغير ردة فعل قوية؟

إن السبب هو «الرسالة الخفية» في الكلام. إن المعنى الذي سمعته كلير من كلام أمها هو أنها لم تأخذ القرارات الصحيحة، وأنها لا تستطيع تنفيذ الواجبات التي أخذتها على عاتقها. إن قولها «بأن الآخرين يستخدمون كلير لفوائدهم» لا يعني فقط الحكم عليها، ولكنه أيضا يغير الصورة الذهنية لنفسها. إن الواجبات الكثيرة التي ائتمنت كلير بإنجازها كانت كما العهد والميثاق لاحترام زملائها لقدراتها. وتأديتها لكل هذا جعلها

تشعر بالأهمية والكفاءة بغض النظر عن شعورها بالتعب والإرهاق. إن لوم أمها جعلها تشعر كأنها ممسحة للأرجل عند باب أحدهم، أو أنها مغفلة وعاجزة. بينما كانت ثقة واحترام زملائها إعلانًا في استحقاقها لهذه المسؤولية والميثاق.

إن مارين كانت تتعجب «ما الذي يمكن أن تريده مني؟» إن ما كانت تريده كلير من أمها هو إشارة بالاهتمام. كأن تقول: «أتفهمك تماماً.. أكاد أشْعر كم أنت مرهقة، لكن العمل الذي تقومين به مهم للغاية وأعلم أنك ستقومين به على أفضل حال. ستعوضين نقص النوم في الإجازة». كانت ترمي إلى تعاطف وتعزية أمها لها. «نظرية المبالغة في التلميح» تماماً كالطفل الذي يحاول أن يلفت نظر أمه إلى ركبته المجروحة ليحصل على قبلة منها حتى يشعر بالتحسن. كم سيكون مخيباً للأمل لو أن الأم صاحت ووبخت الطفل لوقوعه، ـ ويحدث هذا من الأمهات بعض الأحيان بسبب الذعر والخوف عليهم ـ وهذا إحباط مضاعف زود انفجار كلير: إن أمها لم تخفق فقط في تقديم العطف الذي كانت تبحث عنه، ولكن أسوأ من هذا، فالنصيحة التي قدمتها تضمنت عدم ثقتها بحكم وجدارة كلير. ولكن ضع في اعتبارك وجهة نظر مارين للأمر حيث إنها كانت تحاول حماية ابنتها، وهذا يظهر الصفة التي تقدرها كثير من النساء في أمهاتهن: وهي أنها دائماً تكون في صفها.

ولهذا كانت ردة فعل كلير غير متوقعة، وعدم توقعها هو ما يجعلها أكثر ألماً. مارين كانت تعتقد أنها تتحدث مع ابنتها في حوار على الطريق نفسه بسعادة وانسجام عندما تفاجأت بحاجز في الطريق صدمها ورمى بها خارج العربة.

لقد كانت ردة فعل الاثنتين مفاجأة تجاه بعضهما. إنه التفسير المختلف لطريقة الكلام الذي يجعل من الخيبة والتثبيط شيئاً شائعاً جداً بين الأمهات والبنات. وعادة ما يجري سياق الحديث بطريقة كهذه:

البنت تكشف عن شيء خاص وشخصي في سبيل التقرب من أمها. الأم تريد وتتمنى حماية ابنتها فتقدم بدورها النصيحة. إن المعنى الخفي لنصيحتها هو الاهتمام والحماية. ولكن البنت تسمع معنى آخر: إن أمها لا توافق على ما تفعله ومن ثَمَّ لا توافق عليها. هذا التلميح يؤذي مشاعر البنت، ومن ثَمَّ تندفع فجأة في محاولة لإيذاء مشاعر أمها بالمقابل. وتستمر الاثنتان مكبلتين في حبل تكونت به عقد كثيرة بسبب المعنى المزدوج للنصيحة: فبينما تقدم إحداهن النصيحة المساعدة هي أيضاً تلمح إلى أن ما تفعلينه خاطئ وإلا لما كانت تحتاج النصيحة. إن من الصعب حل هذه العقد، لأنه في معظم الأحوال قد تكونت هذه العقد من خيوط لا توجد في السياق العادي الذي من السهل التعرف عليه ولكن في المعنى الخفي الذي يلمح إليه الكلام.

إن الطريقة التي نشأت بها المجادلة بين مارين وكلير تظهر لماذا من الممكن أن يكون الحوار بين الأم وابنتها أفضل الحوارات أو أسوأها: إن المخاطر والمغانم تنبت من نفس الجذور. إن الخوض في حوارات تكشف الشخصية والخصوصيات تعود على كثير من النساء بالمكافأة: فوجود شخص يهتم بتفاصيل حياتك ويتفهم ما الذي تمرين به، شخص تستطيعين أن تفتحي له قلبك وتكشفين ما بداخله. وجود هذه الحوارات يُكْسِبُ النساء البصيرة تجاه المشكلة والوضع الحاصل لهن ويجدن فرصاً أكثر تجاه معرفة التصرف الصحيح. وهي أيضا تجدد الطمأنينة في عدم

الشعور بالوحدة، وأن آخرين قد مروا بالتجربة نفسها. ولكن هذا النوع من الحوارات هو أيضاً خطير للغاية: فأنت تعطين شخصاً آخر معلومات قريبة جداً من إحساسك بنفسك، حيث إنه لو لم يتفاعل هذا الشخص بالطريقة التي تريدين فسيكون ألمك عميقًا، ليس بالألم نفسه الذي ستشعرين به لو كنت تتكلمين مثلا في السياسة أو الأحداث الجارية في الحياة.

ليس هناك شيءٌ أكثر إيلاماً من الاعتقاد بأنك في طوق حوار آمن، تشاركين في تفاصيل شخصية تعزز من القرب والمودة وفجأة تشعرين بأن الشخص الذي وثقت به بهذه المعلومات عن حياتك ونفسك أصبح يستخدمها كسلاح لضربك. عندها من المحتمل أن تندفعين بدورك معتقدة بأنك تضربين بالمقابل. ولكن إذا اعتقد الشخص المقابل بأنه كان يقدم نصيحة وردّاً جيداً ومفيداً، إذ هو سيفهم أن ردة فعلك كانت الضربة الأولى.

وهنا أمثلة لحوارات تركت البنت والأم في معاناة من الجروح والآلام وكل منهن تلوم الأخرى.

«أنا لا أصدق أنك قلت هذا»

مارثا كانت فرحة للغاية لأن ابنتها فيكي كانت تطلعها على تفاصيل حياتها. «أنا منشغلة جدًا بالانتخابات القادمة»، قالت فيكي: «أنا لا أستطيع التوقف عن الحديث عنها، لقد كنت قد تطوعت للاتصال بالناخبين في الولايات المجاورة. وأنا في الحقيقة أفكر جديًا في الذهاب إلى هناك مدةَ أسبوع والمساعدة في إخراج التصويت العام». أجابت أمها مارثا بأفضل طريقة مدح تراها، فقالت: «فيكي، أنا أحب سماعك وأنت

متحمسة لشيء ما. لقد مررت بمرحلة انفعال مؤخرًا، أنا لا أتذكر آخر مرة رأيتك فيها متحمسة لشيء ما. أنا سعيدة جدًا». وفجأة من لا شيء، جاء انفجار: «أنا لا أصدق أنك قلت هذا! من يهتم إذا كنت سعيدة أم لا. هذا الموضوع ليس عنك! لقد كان علي معرفة أنني لا أستطيع قول أي شيء لك». مارثا شعرت بالحيرة والألم. لقد اعتقدت أنها قد قالت شيئًا إيجابيًا وداعمًا. لم يكن لديها أدنى فكرة أن هذا بدوره سوف يغضب ابنتها. إن ثورات كهذه جعلتها تشعر أنها تمشي على قشر بيض في كل مرة تتكلم مع ابنتها. ولكن عند سماعي لهذا الحوار فهمت لماذا كانت ردة فعل فيكي بهذه الطريقة. لماذا كان وقع كلام الأم مؤلماً على البنت بينما كانت نية الأم المدح والدعم ـ لأنه وعلى كل حال عندما يغضب الناس فإن غضبهم يكون بسبب الألم بالرغم من أن الأم كانت فرحة بسبب حماس ابنتها للانتخابات. قالت مارثا: إن فيكي كانت تفتقر سابقاً إلى هذه الصفات الإيجابية وهي الشغف والعاطفة. وكان تعبيرها: «إن الطريقة التي هي عليها الآن عظيمة» مسرفًا حيث لمح المعنى إلى أن الطريقة التي كانت عليها من قبل عديمة الجدوى. إنه تقابل الجانب الإيجابي الحالي مع السلبي الماضي الذي حول من تعليقات مارين من مديح إلى انتقاد. وبينما كانت تعتبر مارين الجانب الإيجابي هو حقًا ما قالته وعنته، فإن الجانب السلبي قد حجب النور عن الكلام من وجهة نظر الابنة.

لم تشعر فيكي بخيبة الأمل هذه عندما قالت «هذا الموضوع ليس عنك!» ـ ولكن قد كان هذا أكثر شيء آلم مارين.

إنني أستطيع أن أفكر بعدة أسباب تجعل فيكي تتهم أمها بالأنانية بدلا من شكواها عن اتهام أمها لماضيها وتقييمها له.

أولاً: في الوقت الذي تكون فيه متألما فأنت غالبا لا تعرف بالضبط اتجاه ردة فعلك، وما الذي تتفاعل من أجله. أنت تعرف فقط أنك كنت تشعر بشعور جيد والآن تشعر بالانزعاج.

ثانياً: الاختلاف بين الرسالة والرسالة الخفية في الكلام. حيث إن المعنى المؤلم لم يكن واضحاً في كلمات الأم، لهذا ركزت فيكي على كلمة «الأنا» في كلام الأم «أنا سعيدة جداً». ربما شعرت فيكي أن باتهامها لأمها تستطيع أن ترد الضربة بالضربة. (ليس هناك أي طريقة لمعرفة ما كانت فيكي تفكر به بالضبط، هل جملة «أنا سعيدة جداً» كان مجرد تعبير اصطلاحي تماماً كقول: «أنا أسفة جدًا» ويمكن اعتباره طريقة تعبير عن المواساة، أو أن فيكي كانت على حق عند شعورها بأن أمها كانت تركز على تجربتها العاطفية بدلاً من التركيز على حالة ابنتها العاطفية).

هناك عوامل مشتركة بين الحوار السابق وبين هذا الأخير الذي سمعت عنه من أم شاركت به وكانت تشعر بالسوء بسببه. بدأ هنا الحوار أيضًا بتبادل هادئ للأحداث اليومية والمشاعر. «أنني أشعر بالإحباط مؤخرًا». أفضت جودي بثقة لأمها إيفا خلال مكالمة هاتفية. « إن ذاك التقييم مازال له أثر سيئ على نفسي، لا أدري لماذا إلى الآن لم أستطع التخلص من تأثيره علي». إيفا حاولت أن تقدم نصيحة مساعدة فقالت: «ربما عليك التفكير في أخذ بروزاك». ـ بروزاك عقار لحالات الكآبة. «لقد لاحظت أنك تميلين أحيانا للكآبة، وكثير من صديقاتي يقلن: إن بروزاك يساعدهن حقًا». فجأة تحطم الجو الدافئ والمريح للحديث العابر. صرخت جودي: «أنا لا أستطيع تصديق أنك قلت هذا! أنا لم أكن أبدًا كئيبة! فقط لأنني أعاني من يوم سيئ تريدين تحويلي إلى مريضة نفسية؟!!». لقد فوجئت

إيفا تماماً بهذا الانفجار. لم يكن لديها أدنى فكرة لماذا كانت ردة فعل ابنتها قوية جداً تجاه اقتراحها الطيب.

أكبر من الحياة

وكما في المثال السابق، فإن جودي كانت تطلب مواساة أمها تجاه ما كانت تشعر به وقتها، وردت إيفا بتعليق عام على حياة ابنتها. ليس لدي أي فكرة عن صحة قول إيفا بأن ابنتها لديها ميل للكآبة، ولكني أستطيع رؤية أن إيفا حريصة ومهتمة بابنتها لدرجة أنها تتمنى أن تجد أي طريقة لمساعدتها وأنها تعتقد أنه من الممكن لعقار الكآبة أن يقوم بالمهمة.

وبمعنى آخر من المحتمل أن إيفا أعطت موضوع تعاسة جودي حجما أكبر من الطبيعي لأنها كأم تحرص وتهتم بابنتها أكثر من أي شخص. وأستطيع أن أرى أيضا أنه في حين من الممكن أن يكون اقتراح جودي مزعجًا إذا أتى من شخص آخر ولكن أن يأتي من أمها فإنه سيكون بمثابة حكم كريه، لأن رأي الأم يحمل وزنًا عظيمًا. وهكذا فإن غضب جودي هو خوفها من أن تكون أمها على صواب: ماذا لو أن شعورها بالحزن لم يكن فقط حاله طبيعيه من الكآبة بل دليل على الذهن غير المستقر؟

وبسبب انفجارات كهذه، فإن الكلام مع البنت الراشدة أو الأم من الممكن أن يشعرك كأنك تتخللين حقل ألغام. حتى وإن تفهمت إيفا انزعاج ابنتها من نصيحتها، فقد وجدت ردة فعل ابنتها فظة وفادحة وغير مناسبة تماماً. فكرت أمها: حسناً إنك لا توافقينني الرأي بأنك تميلين إلى الكآبة أحيانًا ما المشكلة؟ بالتأكيد ما قلت لم يكن بهذا السوء!

عادة ما تكون ردة فعل البنت على كلام أمها غير مناسبة لأنها في الحقيقة هي ليست ردة فعل تجاه الكلمات المقولة، ولكن هي ردة فعل لوزن رأي أمها عليها. هذه المعلومة يجب أن تجلب الراحة للأمهات اللاتي لا يفهمن حجم غضب بناتهن، بالنسبة للبنت فإن الأم هي أكبر من الحياة، لذا فأي حكم يأتي منها فإنه قد يبدو كحكم بالمؤبد. قالت لي سيدة: «عندما كنت طفلة وأمي تغضب مني، كانت تصرخ وتقول: إنني أسوأ طفلة في العالم. وكنت أصرخ بالمقابل: أنها أسوأ أم في العالم. ولكن في داخلي كنت خائفة من أن تكون أمي على حق، وحتى الآن عندما أتشاجر مع زوجي، أو أشعر بأن أحدهم غاضب مني، فأنا أسمع صوت أمي وأفكر، ربما كنت في الحقيقة أسوأ طفلة في العالم، والآن أسوأ شخص بالغ في العالم».

إن التعميم المؤلم من الممكن أن يكون أيضاً من البنت للأم. كانت ماريلين حرفيه تعتز بعملها ونفسها. كانت تقوم بصنع سترات من قماش مميز. كانت قد صنعت بنفسها خليطاً من الأقمشة. ولكن مؤخراً كانت تجري تجارب على الاستخدام الكلي لهذه الأقمشة. من خلال عمل تعليقات للحائط تمزج بين الألوان والأنسجة بطريقة فريدة. كانت فخورة بسلسلتها الجديدة ولكنها أيضاً كانت قلقله حيال ردود فعل زبائنها، وبالفعل فأول مرة تعرض فيها هذا العمل في المعرض تفاجأت ماريلين من قلة بيعها لهذه التعليقات. ذكرت مارلين لابنتها هذه التجربة وقد كانت تتوقع تشجيعاً مثل: «إن تعليقاتك جميلة يا أمي، أنا متأكدة من أن الزبائن سوف يأتون». ولكن بدلاً من هذا قالت ابنتها: «من الأفضل لك أن تضعي اهتمامك بصنع السترات فقط فأنت تعرفين أنك بارعة في عملها وأن هذا ما يرغب به المشتري». شعرت ماريلين بأنها تلقت ضربة على رأسها. لقد

كان مدمراً لنفسيتها أن تسمع من ابنتها أنها كانت قد ضيعت كل هذه الساعات في محاولة للتطوير في اتجاه جديد. وقد كان مؤلماً أكثر لأنه آتٍ من ابنتها. لقد شعرت كما لو أن ابنتها أرادت إيلامها وقد عرفت بالضبط الهدف الجيد لتفعل هذا، الجانب الأكثر حساسية من حياتها.

توقعات عظيمة

إن الواجهة السلبية لعلاقة الأم والبنت ممكن أن تنتج من أهمية الواجهات الإيجابية. إن البنات والأمهات يتوقعن وغالبًا ما يحصلن على الكثير من بعضهن. حتى إن إحباطهن يتوسع عندما لا يحصل هذا. إن الممثلة ليف أولمان عبرت عن الخيال الذي تتوق إليه كل ابنة ـ والذي من الممكن أن تحصل عليه أحيانًا في بعض الأوقات ـ قالت أولمان واصفة علاقتها بابنتها «مهما حصل لها هي تعرف أنها تستطيع أن تأتي إلي وأنه لن يتم الحكم عليها، وأنني سأساندها وأساعدها».

وهناك تعبير مشابه على الأقل لبعض الأمهات وهو أن بناتهن سوف يفعلن أي شيء يطلبنه. وقالت إحداهن: «إن أمي دائما تخبرني كم كانت تفعل من أجل أمها. أنا أعلم أنها تفكر أن علي القيام بالشيء نفسه تجاهها».

هذه التوقعات نفسها هي التي تطلق شرارة الاستياء. تلقت ماكوت اتصالاً هاتفياً من ابنتها بوني، قالت بوني: «مرحباً أمي.. لقد عرفت للتو أن علي الذهاب لاجتماع في ولاية سان فرانسيسكو الجمعة المقبلة. وستان «زوجها» يستطيع أخذ إجازة الجمعة المقبلة لذا قررنا أن نأخذ إجازة طويلة. وفكرنا في أن نترك ابنتنا جونا معك خلال عطلة الأسبوع، حسنا؟» شعرت ماكوت بضيق في صدرها: «يا إلهي يا عزيزتي» قالت ماكوت بتردد:

«إن يوم السبت هو يوم عيد ميلادي وقد خططنا أنا ووالدك للاحتفال بطريقة خاصة». تحبس ماكوت أنفاسها. إنها تكره أن تخيب ظن ابنتها وبالكاد ترفض طلب ابنتها الدائم للعناية بابنتها الصغيرة جونا.

بوني بدت متفاجأة وقالت: «أنت لا تكترثين لأعياد الميلاد أبداً».

قالت ماكوت: «إن هذا صحيح، ولكن هذا العيد سيكون الخامس والستين؛ لذا فهو يبدو خاصًا قليلاً». بوني تقبلت الأمر ولكن ماكوت تشعر بالذنب كلما ترفض لابنتها طلبًا. هي نفسها تعتقد كما قالت الممثلة ليف أولمان: أنها يجب عليها التواجد لمساندة ومساعدة ابنتها عندما تحتاج إليها. ومِنْ ثم تغتاظ من بوني لجعلها تشعر بالسوء فقط لأنها تود أن تحتفل بعيد ميلادها.

إن استياء الابنة أيضاً يأتي من عدم مقدرتها على إنجاز ما هو متوقع منها ـ توقعات أمها منها وتوقعاتها من نفسها. كانت شارون تتكلم مع أمها عبر الهاتف، وأمها تسأل: إذا كانت تستطيع مقابلتها للغداء. شارون تعلم كم تعاني أمها من الوحدة بعد موت والدها وقلبها يتألم حقًا لأمها، ولكن ليس لديها الوقت الكافي في جدولها المزحوم لتستطيع التزاور مع أمها يومًا بعد يوم. إن عليها أن تقول: لا، لا تستطيع أن تقابل أمها للغداء. ولكن لأنها تعتقد أن عليها ذلك فإنها تشعر بشعور صعب جدًا ـ وينتهي بها الأمر إلى لوم أمها لجعلها تشعر بهذا الشعور.

حبلاً يربط بيننا

يتضح لنا من خلال مواقف كهذه كيف أن شعور الانزعاج بين الأمهات والبنات ينتج من عدم فهم كل منهما لواجباته أو واجبات الآخر. والرابط

القوي بينهما الذي يجعلهما تشعران بعمق بمشاعر الطرف الآخر. وهذا بالتأكيد كان الحال بيني وبين أمي.

عندما كانت أمي في التسعينيات من العمر كانت تعيش مع والدي في دار التقاعد. وفي يوم من الأيام وصلت للبيت ووجدت صوتها على جهاز الرد الإلكتروني للرسائل. كانت قد قرأت مقالاً في جريدة وعلقت بصوت مليء بالعفوية والحماسة: «لقد استشهدوا بكلامك!» إن الحماس الذي كان في صوتها جعل قلبي يتوسع. وضربت رقم هاتفها شوقًا لسماع سعادتها مباشرة. ولكن عندما ردت على الهاتف سمعت صوتًا مختلفًا، تحية موجزة و ومختصرة، تقال بطريقة باردة وعديمة الحياة. عرفت مباشرة أنها لم تكن سعيدة.

سألتها: «ماذا هناك؟ هل أنت بخير؟»

«نعم. أنا بخير». قالتها بصوت يدل على أنها ليست بخير. «حسناً ما الذي فعلته اليوم؟» سألتني بنغمة متبلدة.

أعطيتها رداً نموذجياً: «عملت على كتابي». ولردي هذا أعطتني رداً نموذجياً أيضاً «أنت تعملين كثيراً. يجب أن تأخذي بعض الوقت للترفيه». هذه الجملة جعلت قلبي يغرق، كما يفعل دائماً، وقد بدا الأمر كما لو أني لا أحب الحياة التي اخترتها لنفسي. وردي الاعتيادي كان بأن أقول محاولة الدفاع عن نفسي: «أنا أحب العمل، بالنسبة لي العمل هو ترفيه». وهذه المرة كانت جيدة فقد استطعت أن أقول لها إنني عملت شيئاً «للترفيه» اليوم. قلت: «ولكننا خرجنا اليوم بعد الظهيرة، قابلنا بعض الأصدقاء وذهبنا للمتحف التذكاري. ثم ذهبنا لتناول العشاء».

لم تقل حتى «جيداً، إنني سعيدة أخيراً لأنك تقومين بفعل شيء للترفيه عن نفسك». ولم تسأل «كيف كان المتحف التذكاري؟» قالت: «كيف هو؟». قلت: «إننا لم نفعل شيئاً. فقط تناولنا طعام العشاء وذهبنا للطابق الثاني». شعرت بصدمة تماماً كالتي أشعر بها دائماً عندما تكون أمي غير سعيدة. إن خيبة أملها في حياتها جعلتني أشعر بالاتهام، كما لو أنني كنت أنا من خيب أملها، الشخص الذي أخفق في منع تعاستها.

لطالما شعرت بأن هناك حبلاً يجري من صدر أمي إلى صدري، لأن عواطفها كانت تنتقل إلي مباشرة. عندما اتصلت بها علمت من طريقة ردها أي نوع من العواطف أنا على وشك أن أمتص. إذا ارتفع لحن صوتها عند ردها: «آه، أهلا يا حبيبتي. كيف حالك؟» فإن روحي ترتفع. ولكن روحي تهبط إذا كان لحن صوتها بارداً وهي ترد: «مرحبًا. كيف حالك؟» أنا أعلم الآن أنني لست المرأة الوحيدة المربوطة بهذا الحبل. وأن هذا الحبل يمكنه توصيل التيار من كلا الجانبين. عبرت سيدة وأم لابنة بالغة عن هذا كالآتي: «أنا دائمًا أستطيع أن أميز من نبرة صوتها كيف تشعر. ولو كانت تشعر بقليل من الحزن فإن هذا يحزنني أيضا. أنا أستطيع التمييز من أول ثوانٍ للمكالمة. وعندما كانت تمر بظروف الطلاق كانت حزينة تقريبًا كل الأوقات، لذا كنت أنا نفسي حزينة طيلة الوقت».

هذه الأم لديها ولدان أيضاً إلى جانب البنات ولكن انتقال العواطف هذا يحدث فقط مع الابنة. لقد سمعت بالشيء نفسه من كثير من النساء اللاتي تحدثت إليهن: إذا كان عندهن أولاد وبنات فإنهن يشعرن بمزاج بناتهن بسهولة. وعواطف بناتهن غالبًا ما تؤثر على عواطفهن والبنات يشعرن الشعور نفسه تجاه أمهاتهن مقارنة بالآباء. إن حدة التأثر هذه

تتفاوت، بالرغم من أن بعض الأمهات أخبرنني أنهن يشعرن بالحزن إذا شعرت بناتهن بالحزن. ولكن هذا الشعور لا يبقى لمدة طويلة بعد انتهاء الحوار. إن أختي اللتين هما من الأم نفسها عرفا مباشرة مزاج أمي، ولكن لم تتأثرا بكلامها كتأثري. إن مقياس التأثر يتفاوت على نحو كبير بحسب الشخصية الفردية وطبيعة العلاقة بين الأم وابنتها. ولكن داخل هذا النطاق فإن الميل إلى امتصاص عواطف الآخرين عادة ما يكون الأقوى بين الأمهات وبناتهن.

أخبرتني أيضاً أمهات لبنين وبنات بأنهن يتكلمن مع البنات أكثر من البنين، تماما كما تتحدث كثير من النساء مع صديقاتهن لمرات عديدة ولوقت طويل.

إن التحدث الدائم هو سبب آخر في جعل العلاقة بين الأمهات والبنات مشحونة أكثر من العلاقة بين الأمهات والبنين، وبين الآباء والبنات أو الآباء والبنين. أبي كان يسأل بصدق وحيرة عندما تتحدث معي أمي على الهاتف لساعات أو مع واحدة من أخواتي: «ما الشيء الذي تجده النساء للتحدث عنه؟» بالنسبة للبنات والأمهات أو أي امرأتين متقاربتين فإن الحوارات المشتتة والطويلة يمكنها أن تكون من أكثر الجوانب التي تضفي على العلاقة الرضا والسرور. هي سبب كبير لما يجعلهم متقاربين. ما إذا كن يتشاركن في نقاش جدي لمشكلات شخصية أو ببساطة يخبرن بعضهن عن تفاصيل حياتهن اليومية. إن الحوارات الدائمة أيضاً تمنح الفرصة لامتصاص العواطف السلبية، وهي طريقة نتعلم من خلالها كيف نميز بين هذه العواطف من إشارات دقيقة مرسلة عبر كلمات، ومن خلال نغمة الصوت ومن خلال الصمت.

إن الحبل الخفي الذي ينقل العواطف من شخص لآخر يفسر أيضاً لماذا لا تريد كثير من النساء أن يطلعن أمهاتهن عما يدور في حياتهن ـ خصوصاً عن أي شيء مهم من شأنه أن يسبب إزعاجاً وقلقاً. مثلاً كمرض معين أو مشكلة في العمل. كنت دائماً سريعة في إخبار أمي عن محنة صغيرة، حتى أتلقى لوم قلقها. ولكني لم أخبرها بمشكلات جدية لأني لو فعلت فأنا متأكدة بأني سأسمع منها جملة «كنت قلقةً عليك طيلة الليل» إلى اليوم الثاني. إن مشكلاتي أصبحت مشكلاتها، لم أكن أريد لأمي الحرمان من النوم ـ أو لم أكن أريد الانتقال من حالة طلب الراحة إلى حالة وجوب إعطائها.

خارج المأزق

إنه من المستحيل معرفة حقيقة الضربات اللفظية التي تتبادلها الأمهات والبنات أحياناً هل هي مقصودة أم لا. ربما في بعض الأحيان تدرك كلاهما – وإلى درجة معينة – أنها تقذف بعنف، ولكنها تعتقد أنها سوف تفلت من الموضوع من خلال صراخ المعاني الحرفية. إن شخصين قريبين من بعضهما لهذه الدرجة ولهذه المرحلة من المؤكد أن لهما تاريخًا طويلاً في الألم ومن خلاله يسعيان وراء الانتقام الرقيق. ولكن أيضاً لديهما تاريخ مشترك في الفكاهة، قصص مشتركة ولغة مشتركة. إلى جانب الاهتمام العميق بسعادة بعضهما البعض. الشيء الذي يجعل الحوار بدوره أكثر راحة وألفة من التكلم مع أي شخص آخر. إن فهم طريقة عمل ـ الرسالة وما وراء الرسالة في الحديث ـ والطريقة التي يتفاوضن بها حول الاتصال والتحكم والألفة والتطفل، كلها قادرة على توسيع الأوقات التي من خلالها تستطيع الكلمات والملاطفة والعناق تقليص الأوقات التي من خلالها تخدشنا.

obeikan.com

لأن الكلام يلعب دوراً كبيراً في حياة النساء، فإن تَفَهم طريقة عمل الحوارات، وكيف لها أن تقود إلى الإحباط، وإيجاد طرق لتحسين هذه الحوارات، هي المفتاح لعلاقات مرضية أكثر وأقل إحباطاً بين البنات الراشدات وأمهاتهن. إن أعمق أمنية نتمناها كنساء هي أن ترضى عنا أمهاتنا وتفهمنا بناتنا. إننا نستطيع أن نقترب من هذا الهدف من خلال الإنصات للطريقة التي نتحاور بها وأن نتعلم كيف نتحاور مع بعضنا بطريقة جديدة.

obeikan.com